النقد

النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

كتبت إليّ — أعزّك الله ، وأمتع الأدباء ببقائك — أنه قد بعد عهدك بمطالعة ما كنت أكتبه في الصحف من فصول في النقد ، ممتعةٍ في حسن ظنك بأخيك ، وبحوثٍ ضافيةٍ دقيقةٍ فيما تنظره عين رضاك عن صديقك ، وقلتَ : إنها لامست موضع هواك ، وحققت غاية مناك ، ونفثت من صدرك غلّة لم يكن ليشفيها ما طالعتَ أو سمعتَ من فصولٍ غيرها في النقد مما ملئت به صدور الصحف والمجلات ، وحُشيت به بطون المؤلفات ، وأفاض فيه أساتذة النقد الأدبيّ في الدروس والمحاضرات ، إذ كان أكثرها بل كلُّها من إملاء الغرض ووحي الهوى ، وليس للفن فيها من الحظ إلا بمقدار ما يبرّر الناقدُ به تفضيل صاحبه على غيره ، واتهام الآخر بالميّ والقصور في نثره أو شعره ؛ يُغفِلون الأذواق والعقول ، ويحكمون النزعات والميول ، ويتبعون القلوب على ما يعرفون من تقلّبها ، ويستدلون المواطف الخادعة على تحوّلها وعدم استقرارها ؛ فتخرج بحوثهم مختلّة السياق ، مضطربة الآراء ، لا تحمل قارئاً على احترامها ، ولا باحثاً على الاعتماد عليها . فهي بقصائد المدح والهجاء ، أشبهُ منها ببحوث الأدباء والعلماء ، حتى إن الشعراء والكتاب أنفسهم لم يعودوا يأبهون لما ينشره هؤلاء النقاد عن ثمرات قرائحهم ، إذ كان نقدهم إما مدحا تمليه مودّة أو منفعة ، وإما هجاءً تبعثهم عليه عداوة أو حسد ، ولقد قلتُ مرة لبعض الشعراء المجيدين : إن فلانا الناقد المعروف قد كتب فصلاً طويلاً في صحيفة كذا يثني فيه على بعض قصائدك ثناء لو قرأته لسررت به ، وهششت له ؛ وطفقت أطيل في ذكر ما كَتَب ؛ فقال صاحبي : بعض هذا يا أخي ، فما مَدحُ هؤلاء مما أرجو ، ولا نقدهم مما أخشى ، فما أيسر الوسائل التي يُنال بها مدحُ هؤلاء ورضاهم ، وإن ثناءهم لأشبه شيء بالشهادة للميت حين يُحمل إلى قبره ، ويقال : (ماتشهدون في هذا الرجل ؟) فيقول الشيّعون : (صالح وابن صالح) ولعله كان على خلاف ما شهدوا به في حياته ، وقد أراح الله البلاد

يحملون إليها المنايا الصفر ، والنوائل السود ، في شفار المشرفيات البيض !

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالاقلاع ...

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربي أشار بوجوب استيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار ، أم الهزيمة والانكسار ؟ ليكونوا من أمرهم على بينة ، وليكونوا أيضاً قد استخاروا أربابهم فتخيرُ لهم ، واستشاروها فتخلص لهم المشورة ، ويمضون بعد ذلك على بركتها وفي حراستها

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ، ونفوس مبتهلة . . . ومضت أيام . . .

ثم رأوا إلى كاهن المعبد يدلف نحوهم في هدأة فجر صامت ، فشخصت أبصارهم إليه ، وظنوا فيه الظنون

وجلس الكاهن المُسن يقلب في القادة عينيه الكبيرتين ، وصمت لحظة ثم قال : « أين ابن پليوس أيها اللأ . . . ؟ »

ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا . . .

فقال الكاهن : « ابن پليوس رب الأعماق ، من زوجته ذيتيس ! أليس فيكم أخيل ؟ ! . . . »

فأجاب أجا ممنون : « ومن أخيل أيها الأب المقدس ؟ ! »

فقال الكاهن : « هو ابن ذيتيس التي قالت فيها ربات الأقدار إنها تلد غلاماً يكسف مجده مجد أبيه . . . ابحثوا عنه ، فلن تفتح طروادة إلا على يديه ... لن ينفعكم أن تذهبوا بدونه ... هكذا قالت الآلهة . . . »

(لها بقية) دريني خشبة

والعباد بمانه ، ولم تقتصر متابعةُ الغرض ومسايرةُ الهوى فى النقد الأدبىّ على صغار النقاد فى هذا البلد ، بل شمل ذلك أساتذة النقد وذوى الكلمة الفاصلة منهم ، ومن يُرتقب رأيُه فى كل أثر فنىّ ، كما يُرتقب المتَّهم حُكمَ القضاء العادل الذى لامردّ له ، ولا جدال فيه ، فطغى على اجميع سيلُ الغرض ، واندفعوا فى تيار الهوى ، ولم يبالِ واحد منهم بمكانه فى الأدب ، ولا بمنزلته الرفيعة فى نفوس الادباء ، وآيةُ ذلك أنك لا تجد اثنين من الناقدين يتفقان فى الشاعر الواحد على رأىٍ واحدٍ فى شعره ، ويضمانه فى المنزلة التى يستحقها مع غيره ، بل تختلف الآراء فيه — بل فى البيت الواحد من شعره — اختلافاً ظاهراً إلى حدّ التناقض ، فبينا أحدهم يرى فى الشاعر أنه شاعر العربية ، إذا بالآخر يقول : (إنه ليس بالشاعر ولا يشبه الشاعر) ، وهكذا ترى المبالغة والاغراق فى طرفى الرأى ، مما أسقط النقد الأدبىّ وأضاع الغرض منه فى تهذيب الفن ، وأضعف أثره فى نفوس الكتاب والشعراء . مع أنه مما لا نزاع فيه أن للذوق الأدبى مقياساً عاماً لا يختلف فى أصله ؛ وإن اختلف فى بعض الفروع التى لا تقدّم ولا تؤخّر فى الحكم على الشاعر فى جملته ، ولا فى منزلته الشعرية بين أبناء جلدته

وثمّة أمر آخر هو أمرّ نكايةً فى الأدب ، وأبلغُ فى هدمه ، وهو أن أكثر هؤلاء النقاد يقيسون الأدب العربىّ بمقاييس الأدب الغربى ، فيطلبون إلى الشاعر المصرى العربى أن يحاكى شعراء الغرب فى أغراضهم ومعانيهم ، وإن كان أكثرها لا يلائم بيئته ، ولا يجرى مع قانون حياته ، ولا يتفق بوجه مع الطبيعة الشرقية ؛ وأطالوا فى اتهام من خالفهم بالجمود ، وضيق الأفق الفكرىّ حتى حاول بعض الشعراء الناشئين تكلف هذه المحاكاة مراغمةً لشعور القلب وإحساس الفؤاد ، وإرضاءً لهؤلاء النقاد فخرجت قصائدهم لاشرقية ولاغربية ، مشوّهة الصور ضعيفة الأثر ، كالحة الظاهر ، جوفاء الباطن ، لم تصوّر إحساساً فى فرد ولا فى جماعة ، ولم تعبر عن شعور فى الأمة ولا فى الشاعر نفسه ، فلم تسترع هذه القصائد سمعاً ، ولم تجتذب اليها قلباً ؛ ولولا طائفة قليلة أمسكت بسلسلة البيان أن تنقطع ، وآوت اليها طرائدَ الشعر العربىّ ، وصبرت وصابرت فى مدافعة هؤلاء المستغربين فى شرقهم ، وصانت ذخائر العرب — وأخصها اللغة — حتى تسلمها إلى طائفة أخرى مثلها ممن قوى فى نفوسهم شعورُ القومية ونظروا فى الأدب العربى نظرةً واسعةً منصفة ، فعرفوا من نفائسه ما لم يعرفه سواهم ؛ لولا هؤلاء لأفل نجم البيان العربىّ عن هذه البلاد ، ومات الشعر أو كاد

وقلتَ : إنّ آثار النُّقّاد عندك وأجدام بحثاً على طالب الشعر والكتابة من يُعنى بالبحث فى آثار الكتاب والشعراء واختبارِ ثمرات قرائحهم ، فيميز جيّدها من رديئها ، وناضجها من خِبّها ، ويُرى القارىء أسباب الاجادة فيما يستجيد من شعر أو نثر فيأخذ بها ومواضع الزّلل والمؤاخذة فيما لايستجيد منهما فيجتنب الوقوع فيها

أما البحث فى تحليل حياة الشعراء وكيف نشأوا والعصور التى يعيشون فيها ، والبيئاتِ المحيطة بهم فذلك أولى بالمؤرخ الأدبىّ منه بالناقد الفنىّ ، على أن تلك البحوث لاتفيد طالب الشعر فائدة قليلة ولا كثيرة فى الاجادة الفنية ، وإن إفادته فى توسيع ثقافته العلمية

ثم سألتنى أيها الأخ الكريم أن أعود إلى محادثة الأدباء والمتأدبين فيما قرأتُ وأقرأ من جيّد الكلام ورديئه ، وتبيين سبب الاجادة فى الأول ، وموضع المؤاخذة فى الآخر ، والترجيح بين المتساويين فى أول النظر على صاحبه ، ثم لا أذكر بيتاً فيه زلةٌ لشاعر إلاّ عقبتُه ببيت قد سلم منها لمعاصر أوغير معاصر ، مفاضلاً بين البيتين ، موازناً بين الشعرين ، ليكون ذلك مثالاً يُتّبع ، وقياساً ينتهج ، فان لم أجد فيما أحفظ من الشعر مايصلح مثالاً ، ويتخذ قياساً ، غيّرتُ من البيت نظمه ، وداويتُ سقمه ، وذهبتُ بشكله ، وأبقيت على أصله ، وذلك هو ماانتهجته فى البحوث السابقة ، وشرحتُه فى أول بحث كتبتُه ، وإنا لسؤالك لباذلون ، ولدعوتك لمجيبون ؛ نسأل الذى فطر الفطرة ، ووهب القدرة ، أن يعصمنا من هوى لانستطيع غلابه ، وأن يعيذنا من خطأ لانعرف صوابه ، ولست أعد قراء (الرسالة) بأن نحمل حديثى إليهم فى كلّ أسبوع ، بل قد تطول الفترة بين الحديثين ، وقد تقصر ، إذ لم أتعوّد فيما أكتب التقيّد بالوقت ، فان هذه القيود الصحفية مما يحمل الكتاب فى بعض الأحيان على أن يملأوا الصحائف بالسطور ، وإن خلت من فائدة الجمهور

أحمد الزيات